تجليات التناص
بين مفاهيم العرب القدامى ومصطلح الغرب المحدثين

الباحث : محمد الصالح بن حمده
مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري – جامعة غرداية
تحت إشراف الدكتور عاشـــــور سرقمة

* ملخّـــــــص :

يعتبر التناص مصطلح نقدي غربي أُطلق حديثا وأُريد به تعالق النصوص وتقاطعها والحوار ببنها , وبعد تغلغل هذا المصطلح إلى النقد العربي وجد رواجا كبيرا ولقي اهتماما واسعا من طرف النقاد العرب , حيث حضي بدراسات كبيرة , وبالعودة إلى الخطاب النقدي العربي القديم نجد أنّ لهذا المصطلح جذورا عميقة تربطه بالمفهوم الحديث , فالدّرس النقدي العربي القديم عرف الإرهاصات الأولى قبل ميلاد المصطلح عن طريق مجموعة من المصطلحات التي تقترب من مفهوم التناص بشكل أو بآخر , وأبرز تلك المصطلحات : السرقات الشعرية والتضمين والمعارضات الشعرية , حيث أن النقاد العرب القدامى اهتموا بهذا المصطلحات ومنحوها حيّزا واسعا في خطاباتهم النقدية دون الوصول إلى المصطلح الحديث , فهذه المصطلحات النقدية العربية وجدت في التناص الحديث الحُضن الدّافي الذي ترتاح فيه فيشملها جميعا ويعبّر عنها ويحقّق أهدافها , وهذا ما يجعلنا نجزم بأنّ للتناص جذورا عربية في الخطاب النقدي العربي القديم , من خلالها يتوضّح لنا الارتباط الوثيق بين مفاهيم القدامى ومصطلح المحدثين.

* **توطئـــة :**

ممّا لا شك فيه أن الخطاب النقدي العربي القديم عرف تنوّعا كبيرا في المصطلحات النقدية والتي كانت نتاج جهود مجموعة من النقاد تنظيرا وتطبيقا , وما أن بدأ الاتصال الفعلي بثقافات الأمم الأخرى حتى تسرّبت بعض المصطلحات الفكرية والفلسفية والنقدية لتتغلغل في النقد العربي والأدب العربي عامة , وبطبيعة الحال فإن هذا التأثير والتأثر هو دليل صحة تفاعل خلّاق , وقد استفاد النقد العربي من هذا التّلاقح الفكري , فشهد نهضة كبيرة بفعل التجديد الذي لحق به , وسعت هذه النهضة إلى المواءمة بين التراث والحداثة , وهذه النهضة تعتبر تكملة لعمل القدامى مع تغيير في المصطلحات ومن العناصر التراثية التي أُلبست لباس العصر مصطلحات عربية , مثل

: التضمين المعارضة, السرقات , النقائض والتوارد ..... إلخ , وهذه المصطلحات مجموعة أصبحت تعرف اليوم بالتناص .

فالتناص إذن مصطلح نقدي غربي أُطلق حديثا وأُريد به تعالق النصوص وتقاطعها والحوار بينها, وإذا كان هذا مع نصوص من إنتاج المبدع نفسه فهذا تناص داخلي , أما إذا كان مع نصوص غيره فهو تناص خارجي , والإشكالية التي نطرحها هنا : كيف كانت الإرهاصات الأولى للتناص في الخطاب النقدي العربي القديم ؟ , ثم ما هي المصطلحات النقدية التي رافقت تلك الإرهاصات ؟ .

يمكننا القول أن مصطلح التناص تغلغل في الدراسات النقدية العربية بعد أن وفد عن طريق الترجمة , ومن أبرز السّباقين إلى دراسته تنظيرا وتطبيقا " محمد ونيس " و"محمد مفتاح "ورغم اختلاف التسميات عند النقاد العرب إلا أنّ هذا الاختلاف كان في المصطلحات فقد دون المساس بفحوى التعريفات , فكلّها تتقاطع عند نقطة مشتركة وهي اعتماد النص اللاحق على النص السابق, إذن فالأمر هنا يتطلب وجود نص غائب يتم استحضاره , ومنه سنحاول تتبّع الإرهاصات الأولى للتناص في الدرس النقدي العربي القديم قبل تسرّب المصطلح إليه , وسنُبرز أهم المصطلحات النقدية القريبة من مفهوم التناص على اعتبار أنها تشترك مع التناص في بعض جزئياتها وأبرزها : السرقات الشعرية , النقائض , التضمين والمعارضات .

***مفهوم التنـــاص :**

يعد التناص من المصطلحات النقدية الحديثة والمعاصرة التي تنتمي إلى مرحلة ما بعد البنيوية , وقد أولى نقاد الأدب هذا المصطلح اهتماما كبيرا , فجذوره الأولى تمتد من الشكلانيين الروس ومفهومه البسيط هو " الكتابات المبنيّة على صلات بغيرها من النصوص الأدبية مهما كانت هذه الصّلات ظاهرة أو خفيّة "[1] , أما " جوليا كريستيفا" فتعرّفه بأنه : " تقاطع أخبار داخل نص ما مع كونها مأخوذة من نصوص أخرى " [2] , وتضيف لهذا التعريف قائلة : " هو نقل تعبيرات سابقة أو متزامنة وهو اقتطاع أو تحويل " [3] , أما "جيرار جنيت " فيعرّفـــــه بأنه : " علاقة حضور مشترك بين نصين أو عدد من النصوص بطريقة استحضارية , وهي في أغلب الأحيان الحضور الفعلي لنص في نص آخر" [4] ويؤكد في هذا التعريف أن كل نص مُنتَج لا يكون بِكرا ولا ينشأ من فراغ , وإنما يخضع في ولادته لنصوص أخرى متشعبة ومختلفة المرجعية , وأما " رولان بارت " فيعتبر " كل نص هو تناص والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى , فكل نص ليس إلا نسيجا جديدا من استشهادات سابقة " [5] , فهو هنا يؤكد أنه لا يوجد نص مستقل عن غيره من النصوص , وعليه فإن النص الجديد متشبّع بنصوص غائبة بشكل أو بآخر.

ولقد اهتم النقاد والدارسون بهذا المصطلح النقدي الحديث من العالم الغربي والعربي حيث " هاجر في بداية السبعينات إلى أمريكا , وفي عام 1979 م أصدرت مجلة بوطيقا عددا خاصا بالتناص , وفي نفس العام أقيمت ندوة علمية عن التناص في جامعة كولومبيا تحت إشراف ريفاتير ونشرت أعمالها في مجلة الأدب عام 1981 م "[6].

أما في الدراسات النقدية العربية فقد تغلغل هذا المصطلح بعد أن وفد عن طريق الترجمة (وهنا وجب أن نشير إلى أن جذوره ربما كانت موجودة في النقد العربي القديم) , ومن أبرز السباقين إلى دراسته تنظيرا وتطبيقا " محمد ونيس " و"محمد مفتاح " , ورغم اختلاف التسميات عند النقاد العرب إلا أن هذا الاختلاف كان في المصطلحات فقد دون المساس بفحوى التعريفات , فكلها تتقاطع عند نقطة مشتركة وهي اعتماد النص اللاحق على النص السابق , وقد عرفه " محمد مفتاح " بأنه : " تعالق (دخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة " [7] , إذن فالأمر هنا يتطلب وجود نص غائب يتم استحضاره , وهو " مجموعة النصوص المنتشرة التي يحتويها نص واحد في بنيته بحيث تعمل النصوص المنتشرة بشكل باطني في تحقيق النص وتشكيل دلالته " [8] .

ومن خلال التعريفات السابقة التي ذكرناها سواء الغربية منها أو العربية يمكننا القول أن التناص ما هو إلا تشكل نص جديد بالاستناد إلى نصوص سابقة أو معاصرة فتُمحى الحدود بينها ويُعاد صياغتها بشكل جديد لا يُبقي من النصوص السابقة إلا مادّتها ويغيّب أصلها , فلا يمكن إدراكها بسهولة .

وقد أشار " محمد مفتاح " إلى قضية مهمّة في التناص ألا وهي مسألةالمقصدية والاعتباطية فالتناص " إما أن يكون اعتباطيا يعتمد في دراسته على ذاكرة المتلقي , وإما أن يكون واجبا يوجه المتلقي نحو مضانّه , ومهما كان نوعه فإنه ليس مجرد عمليّه لغوية مجانية وإنما له وظائف متعددة تختلف أهمية وأثرا بحسب مواقف المتناص ومقاصده " [9] , وهنا يقع تداخل بين التناص الخارجي والسرقة الشعرية التي يعتمد فيها الشاعر المقصدية , وقضية التداخل في المصطلحات قضية واسعة لا يسمح المقال بالخوض فيها.

وقد قسّم النقاد التناص من حيث الاحتواء إلى داخلي وخارجي , فالتناص الداخلي يمتص فيه المبدع آثاره السابقة ونصوصه الماضية فيضمّنها نصّه الجديد , أما التناص الخارجي فهو " أن يمتص الشاعر نصوص غيره أو يحاورها أو يتجاوزها بحسب المقام والمقال "[10] , ويشترط نور الدين السد في التناص الخارجي " أن تتفاعل نصوص الكاتب مع نصوص غيره , التي ظهرت في عصور بعيدة عن عصره " [11] , ولو أننا لا نشاطره كثيرا في هذا الطرح لأن الكاتب قد يتأثر بنصوص معاصرة له فيتناص معها فالتناص الخارجي يتعدى حدود إبداع الكاتب ويفتح نافذة على نصوص غيره , فقد يكون اطلع على هذه النصوص فأثرت فيه وظهرت جليّة في إبداعاته وربما يكون غير مدرك لها ولكن إبداعه شابه إبداع غيره , وليس شرطا أن يكون التناص مع نصوص شعرية فقط , بل يتعدّى ذلك فقد يكون مع نص من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف , أو أي نصوص نثرية أخرى , وللتناص مجموعة من الأشكال والصور التي يأتي فيها .

هذه المفاهيم التي قدّمناها للتناص تجعلنا نتساءل عن الجذور والإرهاصات الأولى لهذا المصطلح عند العرب القدامى , حيث أننا لو تتبعنا مسار الدرس النقدي العربي القديم لوجدنا أن نقادنا العرب القدامى قد أشاروا إلى نفس المفاهيم تقريبا وعبّروا عنها بمصطلحات أخرى قد تتقاطع قليلا أو كثيرا مع مفهوم التناص , وهذا ما

يقودنا إلى البحث عن تلك الإرهاصات الأولى للتناص وإجراء مقاربات بين هذا المصطلح وما عرفه العرب قديما من مصطلحات من نفس الحقل النقدي.

إرهاصات التناص في الدرس النقدي العربي قبل المصطلح :

لا يمكننا أن ننكر أن هناك تداخل بين المصطلحات في هذا المجال وقد أشار "محمد مفتاح" إلى التداخل الكبير بين التناص وبعض الحقول الأدبية الأخرى , حينما قال : " قد يرى المطّلع على بعض الدراسات المتعلقة بالتناص تداخلا كبيرا بين المفهوم وعدة مفاهيم أخرى مثل : الأدب المقارن والمثاقفة , ودراسة المصادر والسرقات , ولهذا فإن الدراسة العلمية تقتضي أن يُميّز كل مفهوم عن غيره , ويُحصر مجاله لتجنّب الخلط إن هذا العمل يقتضي دراسة مفصّلة تتناول كل مفهوم على حدى , وتناول الظروف التاريخية والإبستيمية التي ظهر فيها " [12], وهذا ما يجعلنا نُجزم أن النقد العربي قديما تطرّق إلى بعض صور التناص دون معرفة المصطلح , ولكنه عرف مجموعة من المصطلحات القريبة من هذا المفهوم مثل : السرقات الأدبية , التضمين , النقائض والمعارضات .

1 - بين التناص والسرقات الشعرية :

يرتبط التناص الخارجي في بعض جوانبه مع السرقة الشعرية , على اعتبار استفادت نص لاحق من نص سابق , ويرى بعض النقاد وأبرزهم " عبد الملك مرتاض " أنّ هناك صلة كبيرة بين السرقات الشعرية والتناص , حيث يقول أن التناص هو " تبادل التأثّر والعلاقات بين نص أدبي ونصوص أدبية أخرى , وهذه الفكرة كان الفكر النقدي العربي عرفها معرفة معمّقة تحت شكل السرقات الشعرية " [13]ومن خلال هذا القول يشير مرتاض إلى السّبق العربي في هذه الفكرة من خلال الإشارة إلى السرقات الشعرية التي أخذت حيّزا كبيرا في الخطاب النقدي العربي القديم , ونفس الرأي تقريبا نجده عند "عبد الله الغذامي " والذي أشار إلىإلى " ضرورة دراسة ما كان يسمّيه الأقدمون بالسرقات الشعرية " [14]أثناء الحديث عن مصطلح التناصية, ومن هنا يمكننا أن نؤكد أن السرقة الشعرية من حيث المفهوم قريبة جدا من التناص الخارجي .

مفهوم السرقة الشعرية :

تعتبر السرقة الشعرية من بين المصطلحات التي استهوت النقاد العرب القدامى لدراستها والبحث فيها , ويعرّف ابن خلدون السرقة الشعرية فيقول : " هي أن يعتمد الشاعر اللاحق فيأخذ من شعر الشاعر السابق بيتا شعريا أو شطرا من بيت أو صورة فنية أو معنى ما " [15] , فمن خلال هذا التعريف نلاحظ وجود التعالق بين النصوص اللاحقة والسابقة سواء من حيث اللفظ أو المعنى أو كليهما وهناك من يربط ظهور دراسة السرقات الشعرية دراسةً منهجية بظهور الشاعر أبوتمام , حيث يقول " مصطفى السّعدني " أنّ السبب في ذلك يعود لأمرين " أوّلهما : قيام خصومة عنيفة حول الشاعر وثانيهما عندما قال أصحاب أبي تمام أن شاعرهم قد اخترع مذهبا جديدا وأصبح إماما فيه لم يجد خصوم هذا المذهب سبيلا إلى ردّ ذلك الادّعاء غير أن يبحثوا للشاعر عن سرقاته ليدلّوا على أنه لم يُجد شيئا , وإنما أخذ عن السابقين , ثم بالغ وأفرط , وبذلك حدثنا الآمدي أنه لم يتتبع سرقات البحتري بنفس الاهتمام الذي تتبع به سرقات أبي تمام "[16], وعلى العموم فإن السرقة الشعرية كانت أمرا سلبيّا في نظر النقاد العرب

القدامى لأنهم وضعوا مبدأ المقصدية في هذا الأمر , فالشاعر عندهم تعمّد أن يأخذ من إبداع غيره وينسبه لنفسه على اعتبار أنه صاحبه .

ولعلّ الدافع الأول لنشوء قضية السرقات الشعرية هو " اتصال النقد بالثقافة ومحاولة الناقد أن يثبت كفايته في ميدان الاطلاع , ثمّ تطوّر ذلك إلى اعتقاد أن المعاني قد استنفذها الشعراء القدامى , وأنّ الشاعر المحدث قد وقع في أزمة تحدّ من قدرته على الابتكار , ولهذا فهو إمّا أن يأخذ معاني السابقين أو يولّد منها معاني جديدة وبهذا يتفاوت المحدثين في قدرتهم على التوليد والتجديد والابتكار "[17].

لقد أشار العرب منذ العصر الجاهلي لما يحدث من تداخل في النصوص لذلك أخذ الشعراء العرب فيالبحث عن المبرّرات التي تُبعد عنهم تهمة السرقة الشعرية ,فهم يقرّون بوجود تداخل وتعالق بين نصوصهم ونصوص غيرهم ممن سبقوهم أو عاصروهم , والأمر عندهم حتمي ولا يمكن الهروب منه وفي نفس الوقت لا يعتبرونه عيبا أو نقصا أو سرقة , لأنهم يُرجعونه إلى تشابه المرجعيات والتوافق بينهم ويتبرّؤون من تهمة السرقة , وهذا ما يجعلنا ندرك أن الأمر قريب جدا من التناص الخارجي بمصطلحه ومفهومه الغربي الحديث , وقد ذكر ببعض الشعراء العرب القدامى هذه المسألة في أشعارهم ,حيث يقول الشاعر كعب بن زهير :[18]

ما أرانا نقـــول إلا رجيـــعا ومُـــعادا من قولنا مكرورا

وكذا نجد ذلك في قول حسان بن ثابت :[19]

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل يوافـــق شعرهم شعـري

وإذا أردنا إبراز العلاقة الكبيرة والتقارب الواضح بين التناص والسرقات الشعرية يمكننا الاستدلال بما وجدناه في الدرس النقدي العربي القديم من مصطلحات تندرج ضمن باب السرقات الشعرية وهذه المصطلحات نفسها نجدها ضمن باب التناص في النقد الغربي , ومن هذه المصطلحات نذكر مصطلح " الاهتدام " , وهو من المصطلحات التي تدخل تحت بابالسرقات الشعرية باعتباره أحد أنواعها , وقد أشار لذلك ابن رشيق في العمدة , وربّما المصطلح ذاته نجده في التناص الغربي , حيث يُنظر له على أنه هدم لنصوص أخرى , وتقول جوليا كريستيفا " هي نصوص تتم صياغتها عبر امتصاص وفي نفس الآن عبر هدم للنصوص الأخرى للفضاء المتداخل نصيا "[20] .

فمصطلح الهدم الذي ذكرته كريستيفا نجده في كتاب العمدة لابن رشيق حينما أراد إثبات وجود الهدم بين شاعرين حيث يقول : " الاهتدام نحو قول النجاشي :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمت فيها يد الحدثـــان

حيث أخذ " كثير عزّة " الشطر الأول واهتدم الشطر الثاني , فجاء في غير اللفظ :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلّت"[21]

ويتفق التناص مع السرقات الشعرية في العديد من النقاط , فهما ينتميان إلى حقل واحد هو حقل النقد الأدبي , فالسرقات تنتمي إلى حقل نقدي عربي قديم والتناص ينتمي إلى حقل أوروبي حديث ومعاصر , كما أنهما يتفقان في اعتماد النص اللاحق على النص السابق , باعتبار مبدأ الأسبقية وهو مبدأ لا مهرب منه في العملية الإنتاجية سواء كانت سرقة أو تناصًّا , غير أنهما يختلفان في البعد الأخلاقي لدى النقاد حيث أنهم لايعتبرون التناص عيبا بل أنهم أجمعوا على أن النصوص لا يأتي إبداعها

من فراغ وإنما يجب الاستناد إلى نصوص سابقة في ظل شبكة من العلاقات والتفاعلات بينها فالتناص أمر محمود يُضفي جمالية على النصوص الأدبية ,بينمايُنظر إلى السرقات الأدبية في أغلب الأحيان نظرة التأثيم ق أخلاقيا على اعتبار أن الشاعر سارق أخذ من غيره ونسبه له .

وحسب رأيي فإن التناص أعمُّ من السرقات وأشمل منها , على اعتبار أنه يرتبط بدراسة النص الأدبي باعتباره جنسا غير مقيد بنوع محدد من التفاعل مع النصوص الأخرى , سواء كانت أدبية أو غير أدبية , قومية أو عالمية , لغة واحده أو لغة مختلفة أي استعلاء النص على حدود الزمان والمكان , أما السرقات فقد ركّزت على النصوص الأدبية دون غيرها .

2 - المعارضات صورة من صور التناص :

تعتبر المعارضات الشعرية أحد الحقول النقدية التي عرفها الدرس النقدي العربي قديما , وقد أشار بعض النقاد العرب إلى توافق هذا المصطلح مع التناص , ورغم قلّة الآراء التي تنادي بهذا الطرح إلاأننا لا نستطيع أن ننكر أن هناك ملمحًا مشتركًا بين المصطلحين من حيث المفهوم , بل يمكننا أن نعتبر المعارضات الشعرية صورة من صور التناص.

مفهوم المعارضة الشعرية :

المعارضة في أبسط تعريفاتها هي : " أن يقول الشاعر قصيدة في موضوع ما فيأتي شاعر آخر فينظم قصيدة أخرى على غرارها , محاكيا بذلك القصيدة الأولى في وزنها وقافيتها وموضوعها مع حرصه على التفوق "[22] ,وما نستنتجه من هذا التعريف ضرورة وجود نص شعري سابق أمام الشاعر المعارض ليقتدي به ويحاكيه محاولا بذلك تجاوزه والتفوق عليه .

وهناك من الشعراء من يدعو إلى ضرورة أن يحاكي الشاعر الحديث من سبقه من الشعراء الجاهليين أو الإسلاميين أو العباسيين , وأبرز من يدعو لذلك " محمود سامي البارودي " , حيث أنه اعترف في مقدمة ديوانه أنه يحاكي الشعراء السابقين ويعارضهم في كلامهم , فهو يُقرّ هنا بوجود تداخل بين نصوصه الشعرية وبين نصوص من سبقوه من الشعراء ولا يجد في ذلك حرجا أو نقيصة يمكن أن تحطّ من قدره , فيقول :[23]

تكلّمت كالماضين قبلي بما جرت به عادة الإنسان أن يتكلّما
فلا يعتمدنـــــي بالإساءة غافـــــلُ فلا بدّ لابن الأيك أن يترنّما

فالبارودي هنا ينفي عن نفسه تهمة السرقة من جهة , ويعتزّ بإحيائه للشعر العربي القديم من جهة ثانية , وممّا لا شكّ فيه أن عملية المعارضة استوجبت وجود نص سابق وآخر لاحق , حيث يقع التفاعل بينهما , وهذا ما نجده في مفهوم التناص , " ومن أمثلة ذلك قول البارودي :

علـــيّ طلابُ العزّ من مستقـــــرّه ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر

فهو هنا يحاكي قول أبي فراس الحمداني :

عليّ طلابُ العزّ من مستقـــــرّه ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب"[24]

وللشاعر " أحمد شوقي " قصيدة كاملة يعارض فيها قصيدة نهج البردة , حيث يقول :[25]

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرم

رمى القضاء بعيني جؤذرا أسدا يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

يظهر لنا جليّا تداخل لنصوص وتفاعلها في المعارضة الشعرية , وهي صورة ن صور التناص بمفهومه الغربي الحديث , حيث يقول محمد مفتاح : " المحاكاة المقتدية وهي (المعارضة) التي يمكن أن نجد في بعض الثقافات من يجعلها الركيزة الأساسية للتناص"[26], ونفس الرأي تقريبا نجده عند عبد الرحمان السماعيل , حيث يرى " أنّ التناص يتوافق مع المعارضة الضّمنية التي تأتي تلقائيا بعيدا عن المقصدية الصريحة أو السرقة بسبب التداخل الشديد بين القنوات التراثية في أعماق اللاوعي عند الشاعر المتأخر" [27] , ثم يضيف إلى ذلك معلّلا رأيه بأنّ " ارتباط الشاعر بتراثه كارتباط أحد الأغصان في شجرة كبيرة ببقية أغصانها , فهو لا يستطيع أن ينفصل عنها مستقلّا بنفسه أو مبتعدا عن جذوره التي تربطه بغيره من الأغصان , فيأتي حاملا نفس السّمات والملامح التي تحملها بقية الأغصان , وإن اختلفت طولا أو عارضا "[28] .

ومن خلال ما ذكرنا نستنتج أنّ المعارضات الشعرية تعتبر أحد صور التناص من خلال اعتماد المعارضة عن نص سابق والاستفادة منه بُغية التفوق والتميز , فالأمر هنا يتطلب وجود نص غائب يُستعان به لإنتاج نص جديد يحمل عبقا ورائحة من غيره ولعّل الدرس النقدي العربي القديم أجاز فكرة المعارضات الشعرية واعتبرها أمرا مباحا لا يُنقص من قيمة الشاعر المعارض , على عكس نظرته للسرقات الشعرية .

3 - التناص بديل للتضمين :

يرى بعض النقاد أنّ مصطلح التضمين موازٍ لمصطلح التناص على اعتبار أنّ أحدهما يمكن أن يكون بديلا للثاني , وأبرزهم عبد الملك مرتاض وتوفيق الزيدي , وهم بذلك يؤكدون أنه بإمكاننا استعمال مصطلح التضمين باعتباره مصطلح عربي مقابل المصطلح الغربي التناص .

مفهوم التضمين :

في الجانب اللغوي جاء في لسان العرب في مادة (ض م ن) : " الضمين الكفيل , ضمن الشيء وبه ضمنا : أودعه إيّاه كما تودع الوعاء المتاع والميت القبر " [29] ومنه نستنتج أنّ معنى التضمين لغويّا هو الإيداع , وهو لا يختلف كثيرا عن معناه الاصطلاحي .

ويعتبر التضمين ركنا من الأركان الأساسية للبلاغة العربية , وقد أسهب البلاغيون العرب في الحديث عنه , ومن أبرز من تحدث عنه قديما الرماني والزمخشري وابن رشيق والحموي وغيرهم , فقد عرّفه الرماني في قوله : " تضمين الكلام : هو حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أو وصف أو عبارة عنه "[30], وقد قسّم الرماني التضمين إلى قسمين: " الأول ما كان يدل عليه دلالة الأخبار , والثاني ما يدل عليه دلالة القياس "[31] والمفهوم نفسه تقريبا نجده عند ابن رشيق , حيث يقول : " فأمّا التضمين فهو قصدك إلى بيت من الشعر أو القسيم , فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل "[32] .

فالتضمين من خلال ما ذكرناه يعني قصد الشاعر إلى نصوص لشعراء آخرين فيأخذ منها ويضمّنها شعره لإنتاج نص جديد , وقد يكون في اللفظ أو المعنى أو كلاهما وهو ضرب من الفنون المتّبعة بين الشعراء والكتّاب , وهو يعتبر مصطلحا شاملا لكل

أنواع الأخذ سواء كان في الشعر أو في النثر , ويمكننا أن ندرج السرقات والمعارضات في باب التضمين .

ولقد أشار بعض النقاد العرب المحدثين إلى أنّ للتناص جذور عربية , ولم يعتبروه إبداعا غربيا , مؤكدين بذلك أنّ التناص الغربي الحديث هو التضمين العربي القديم حيث يرى عبد الملك مرتاض أنّ " التناص هو الوقوع في حال تجعل المبدع يقتبس أو يضمّن ألفاظا أو أفكارا كان اِلتهمها في وقت سابق ما دون وعي صريح بهذا الأخذ المتسلّط عليه من مجاهل ذاكرته ومتاهات وعيه "[33] فهو هنا لا يجعل أي فوارق بين التناص والتضمين , مع الإشارة إلى عدم الوعي بالأخذ , أي أنّه لا توجد مقصديّة في ذلك , ويرى أحمد الزعبي أنّ " التضمين والاقتباس والاستشهاد نماذج من التناص يستحضرها الكاتب إلى نصّه الأصلي لوظيفة فنّية أو فكريّة منسجمة مع السّياق الروائي سواء كان هذا التناص نصّا تاريخيا أو دينيّا أو أدبيّا "[34] , ويعزّز عز الدين إسماعيل هذا الرأي حيث يعتبر التضمين من أهم عوامل التطور الفني للقصيدة العربية الجديدة والشاعر المعاصر – حسب رأيه – يختلف عن الشعراء القدامى , لأنّه يؤمن أنّه ثمرة الماضي كلّه , وهو وسط آلاف الأصوات التي لابدّ من حدوث تآلف وتفاعل بينها فعندما يضمّن كلامه بغير نصّه فهذا دليل على التفاعل بين أطراف التاريخ الفكري والروحي للإنسان , وعند امتداد التضمينات ينزغ أصوات آخرين لا يتكلمون بلغته ولا يربطه بهم سوى رابط الثقافة الإنسانية "[35] , فمن خلال ما ذكره عز الدين إسماعيل نستنتج أنّ مصطلح التضمين عنده يعني تداخل النصوص وتجلّي النص الغائب في النص الحاضر وهذا هو جوهر ما يعنيه مصطلح التناص .

وممّا ذكرناه نستنتج أن مصطلح التضمين مؤهّلٌ ليكون بديلا لمصطلح التناص وذلك لأنّ ظاهرة التضمين التي عرفتها البلاغة العربية القديمة هي أقرب ما تكون إلى مفهوم التناص الذي عرفه النقد الغربي والعربي الحديث , مع بعض الاختلافات البسيطة كون التضمين ارتبط بالشعر أكثر من النثر بينما التناص ارتبط بهما معا , ثمّ إنّنا يمكن أن نعتبر مصطلح التضمين مصطلحا شاملا تندرج تحته كل من السرقات المعارضات , الاقتباس , التوارد , النقائض وغيرها , ومن هنا فهو قادر على أن يكون بديلا معادلا للتناص في النقد العربي .

*** الإحالات :**

[1] - عبد القادر بقشي , التناص في الخطب السعدي والبرغثي , تعريب السرغيني , المغرب دط , 2007 , ص 17 .

[2]- وليد الخشاب , دراسات في تعدي النص , الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية دط , 1994 , ص9 .

[3]- المرجع نفسه , ص 9 .

[4]- محمد خير البقاعي , دراسات في النص والتناصية , مركز النماء الثقافي , حلب, ط1 1998 ,ص 125 .

[5]- المرجع نفسه , ص 38 .

[6] - النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) , منشورات اتحاد الكتاب العربي دمشق , دط , 2001 ,ص 21

[7]- محمد مفتاح , تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) , المركز الثقافي العربي الدار البيضاء , المغرب
ط3 , 1992 م, ص 121 .

[8]- نور الدين السد , الأسلوبية وتحليل الخطاب , دراسة في النقد العربي الحديث , دار هومة للطباعة والنشر والتوريع , الجزائر , دط , 1997 م , ج2 , ص 108 .

[9]- محمد مفتاح , تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) , مرجع سابق , ص132.

[10]- المرجع نفسه , ص 125 .

[11]- الأسلوبية وتحليل الخطاب , دراسة في النقد العربي الحديث, مرجع سابق ص112.

[12]- محمد مفتاح , تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص), مرجع سابق،ص119.

[13] - عبد الملك مرتاض , فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص , مجلة علامات , العدد1 جدة , المملكة العربية السعودية , ماي 1991 , ص 91 .

[14] - عبد الله الغذامي , الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية) , الهيئة المصرية العامة للكتاب , مصر , ط4 ص 321 .

[15]- ابن خلدون , المقدمة , تح : حجر عاصي , دار مكتبة الهلال , بيروت , دط , 1986م ص 533 .

[16]- التناص الشعري (قراءة أخرى لقضية السرقات) , منشأة المعارف الإسكندرية دط , 1991 م , ص 16 .

[17] - محمد عزام , المصطلح النقدي في التراث العربي , دار الشرق العربي , بيروت , دط 2010 م , ص 202 .

[18]- كعب بن زهير , الديوان, شرح ودراسة , مفيد قميحه , دار الشواف للطباعة والنشر,الرياض ,ط1 ,1989 م , ص 66

[19]- حسان بن ثابت , الديوان , تح : وليد عرفات , دار صادر , بيروت , ج2 , دط 2006 , ص 177 .

[20]- جوليا كريستيفا , علم النص , تر :فريد الزاهي , دار توبقال للنشر , الدار البيضاء ط2 , 1997 م , ص79.

[21]- ابن رشيق القيرواني , العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده , تح : محمد محي الدين عبد الحميد , دار الجيل , بيروت , ج2 , دت , ص 208 .

[22]- النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي) , مرجع سابق , ص109.

[23]- محمود سامي البارودي , الديوان , تق : عمر الدسوقي , دار المعارف , مصر ط2 1975 م , ص 48 .

[24] - نسيب نشاوي , المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر , دار المطبوعات الجامعية الجزائر, دط , 1984 م ص 53 .
[25]- أحمد شوقي , الشوقيات , دار الكتاب العربي , بيروت , ج2 , ط1 , دت , ص190.
[26]- محمد مفتاح , تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص), مرجع سابق ,ص121.
[27]- عبد الرحمان السماعيل , المعارضات الشعرية , النادي الأدبي , جده , دط , 1994م ص 26 .
[28]- المرجع نفسه , الصفحة نفسها .
[29]- ابن منظور , لسان العرب , ص843 .
[30]- الرماني ,النكت في إعجاز القرآن , تح : محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام , دار المعارف , مصر , دط , دت ص 94 .
[31]- المرجع نفسه , الصفحة نفسها .
[32]- ابن رشيق , العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده , مرجع سابق , ص 704 .
[33]- خليل موسى , التناص والأجناسية في النص الشعري , مجلة الموقف الأدبي , دمشق ع 305 , 1996 , ص84
[34]- أحمد الزعبي , التناص التاريخي والديني (مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية في رواية " رؤية لها ") , مجلة أبحاث اليرموك , مج 13 , ع 1 , 1995 , ص 169 .
[35]- ينظر : عز الدين إسماعيل , الشعر العربي المعاصر , دار الفكر , بيروت , ط3 1978م ، ص 311 .